في نسقية اللغة

أحمد الفوحي

عندما خلق الله تعالى آدم عليه السلام علمه الأسماء "وعلم آدم الأسماء كلها"[1]؛ وفي ذلك إشارة إلى أهمية اللغة ودورها في تجلي الوجود وتحققه. فلا شيء خارج ما تتيحه اللغة الطبيعية. والعوالم الممكنة هي ما تسمح به اللغة، ولا شيء بعد ذلك. فاللغة سر الوجود، وهي وسيلة الإنسان التي ينظر من خلالها إلى العالم الخارجي ويُقطِّعه. وبها يسمي، والتسمية إيذان بوجود وشهادة ميلاد وتمييز بين الموجودات.

وهذا ما جعل اللغة ذات أهمية كبرى حتى إنها عُدت، بحق، نسق الأنساق[2] والوسيلة المثلى التي اهتدى إليها الإنسان للتعبير والتواصل وقضاء الأغراض. بل إنها المنظار الذي ننظر من خلاله إلى العالم الخارجي. فاختلاف المنظور لا يعني، بالضرورة، أنه متعدد وإنما قد يكون بسبب تعدد المناظير. وهذا الذي جعل عَلَمين من أعلام اللسانيين الأمريكيين الشماليين ينتهيان، في دراستهما للغات الهنود الحمر، إلى أن اختلاف النظر إلى العالم الخارجي وإدراكه مرده إلى اختلاف الخلفية الثقافية/اللسانية التي تحكم النظرة. ومن هنا كانت **فرضية وورف–سابير** التي يستحضرها المشتغلون بالترجمة والانتقال من نظام لساني إلى آخر، والتي جعلتهم يدركون أنهم لا ينتقلون من نظام لساني إلى آخر فحسب، وإنما من نظرة إلى العالم وتقطيع له إلى نظرة أخرى مغايرة وتقطيع آخر مخالف[3].

هذه النسقية هي التي جعلت سوسير، المتشبع بالفلسفة الوضعية الجديدة، يجعل اللسان (اللغة الطبيعية المعينة) موضوعا للسانيات لما ينطوي عليه من تجانس واتساق وخضوع لمقتضيات الدراسة "العلمية" وفق منظور الوضعية الجديدة. فما كان يهم سوسير هو النسقية لا المعطى

ذاته. بل إن تطور البحث اللساني والسميائي، بعد سوسير، جعل الدارسين[4] يعتبرون اللسان أرقى الأنساق التواصلية الترميزية، ويقلبون المعادلة السوسيرية ويجعلون اللسانيات أعم وأشمل من السميولوجيا، التي لا ينفك المشتغل بها يتوسل باللسان في دراسته للأنساق غير اللفظية. ذلك أن "الأنظمة الدالة غير اللفظية، مهما كان نوعها، مجبرة على المرور عبر اللغة الطبيعية"[5]. وما كان للغة أن تحظى بهذا التفرد والامتياز لولا مقومات لا تتوافر في غيرها من الأنساق التواصلية الأخرى. وهي المقومات التي تدور حول معايير اليسر والبساطة والعموم والفائدة. وقد أشار إلى ذلك السيوطي، حين حديثه عن الحكمة من وضع اللغة، بقوله: "السبب في وضع الألفاظ أن الإنسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته بل لا بد من التعاون، ولا تعاون إلا بالتعارف، ولا تعارف إلا بأسباب، كحركات أو إشارات أو نقوش أو ألفاظ توضع بإزاء المقاصد. وأيسرها وأفيدها وأعمها الألفاظ؛ أما أنها أيسر فلأن الحروف كيفيات تعرض لأصوات عارضة للهواء الخارج بالتنفس الضروري، الممدود من الطبيعة، دون تكلف اختياري. وأما أنها أفيد فلأنها موجودة عند الحاجة معدومة عند عدمها. وأما أنها أعمها فليس يمكن أن يكون لكل شيء نقش؛ كذات الله تعالى والعلوم، أو إليه إشارة كالغائبات، ويمكن أن يكون لكل شيء لفظ. فلما كانت الألفاظ أيسر وأفيد وأعم صارت موضوعة بإزار المعاني"[6]. فالمعاني المقصودة هنا هي كل الموجودات التي دخلت اللغة، فسمتها هذه الأخيرة ووضعت لها لفظا خاصا بها. ومسألة تفضيل اللغة عما سواها من الإمكانات التعبيرية/الترميزية الأخرى التي وردت عند السيوطي هي نفسها التي نجدها عند ابن سينا الذي يقول: "ولما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة، انبعثت إلى اختراع شيء يُتوصَّلُ به إلى ذلك. ولم يكن أخف من أن يكون فعلا[7]، ولم يكن أخف من أن يكون بالتصويت، وخصوصا والصوت لا يثبت ولا يستقر ولا يزدحم، فتكون فيه مع خفته فائدة وجود الإعلام به مع فائدة انمحائه..."[8].

وتتجلى نسقية اللغة وتتحقق في حديث الخليل عن العلل وتشبيهه اللغة بالدار المحكمة البناء، العجيبة النظم والأقسام التي لا يمكن أن تصدر إلا عن حكيم صحت عنده حكمة بانيها[9]. فلا شيء متروك للصدفة أو الاعتباط. بل إن النسقية قد تجعل من لغة معينة نموذجا لفهم لغات

أخرى، ونموذجا لتصحيح بعض المفاهيم والمعتقدات. ذلك أن المعرفة بدقائق اللغة قد تفيد في الفهم الصحيح لمقتضيات الشريعة وتمنع من الوقوع في الخطأ والزلل.

فأندري رومان المتأثر بغوستاف غيوم في مسألة النسقية، يعتبر اللغة العربية نموذجا لفهم نشأة اللغات السامية وتطورها، بالرغم من أنها أصغر أخواتها السامية وآخر ما دخل منها التاريخ. وقد كتب في ذلك مقالا نشره في مجلة "**عربيات**"[10]، يظهر من عنوانه اهتمامه بمسألة النسقية الغالية على غيوم ومن سار سيره. ويجعل نسقية العربية في علاقتها بأخواتها السامية متجلية في محافظتها على النسق "السامي الأول" في نظامه المقطعي القائم على التوليف بين الصوامت والمصوتات، من خلال المقطعين /صا–مص/ و/ صا–مص–صا/ اللذين احتفظت بهما العربية من اللسان السامي الأول[11]. وقد عاد إلى هذه الفكرة لتأكيدها في أطروحته[12] المنشورة عن جامعة بروفانس، وفي الكتيب[13] المنشور ضمن سلسلة "ماذا أعرف"؟ وفي الكتاب الذي ألفه عن التوليد المعجمي في العربية[14].

ولما كانت اللغة نسق الأنساق بامتياز، كان العلم بها وبدقائقها وأسرارها مفتاحا لفهم مقتضيات الشريعة فهما يوافق صحة المعتقد. فالشريعة أحكام، والأحكام بمثابة معاني. والمعاني مبثوثة في نص ينتمي إلى نسق لساني معين. وهذا ما جعل ابن جني يعقد بابا في الخصائص[15] لهذا الغرض، يوضح فيه، بالأمثلة، كيف يمنع العلم باللغة ونظامها الوقوع في المحظور الديني، ويعين على الفهم السليم للمقتضيات الشرعية؛ وذلك حينما ينبه على أن القرآن نزل بلغة العرب وأن الله تعالى خاطب الناس بما يألفونه ويعتادونه من كلامهم. وفي ذلك يقول: "اِعلم أن هذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب...وذلك أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، فإنما استهواه (واستخف حِلمه) ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة"[16]. فكان الربط بين الضلال (ذي المسحة الدينية العقدية) وبين عدم الإلمام باللغة وقواعدها؛ وكان استعمال الهوى، والهوى يضل عن سبيل الله. ثم يعرج على أمثلة عديدة يستفاد من ظاهرها التجسيم والتشبيه المرفوضان، عقيدةً، في حقه تعالى؛ ويجد المخرج لذلك فيما يأتي: "وطريق ذلك أن هذه اللغة أكثرها جار على المجاز، وقلما يخرج الشيء منها على الحقيقة.. فلما كانت كذلك، وكان القوم الذين خوطبوا بها أعرفَ الناس بسَعة مذاهبها

وانتشار أنحائها، جرى خطابهم بها مجرى ما يألفونه ويعتادونه منها، وفهموا أغراض المخاطِب لهم بها على حسب عرفهم، وعادتهم في استعمالها"[17]. ثم يأتي بشواهد عديدة من حياة العربية واستعمالاتها، يؤكد من خلالها استعمال تلك الألفاظ استعمالا مجازيا. والمجاز من صميم اللغة. فكما تعبر بالحقيقة تعبر بالمجاز أيضا. وفي هذا تصديق لنصيحة ابن عباس بوجوب التماس ما أشكل من القرآن في الشعر الجاهلي[18]. وهل يعقل أن يكون في عادات القوم الكلامية استعمال المجاز ثم يأتي الله تعالى فيخاطبهم بالحقيقة في كل الأحوال؟ فكيف للفهم والإفهام أن يكونا؟ وكيف للتبيين أن يتم؟ ألم يقل جل وعلا "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"[19]؟ وهو ما أكده سيبويه بقوله: " ولكن العباد إنما كلموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون"[20].

ويزيد ابن جني في تبيين فضل اللغة على الشريعة حينما يبين سوء فهم القوم قوله تعالى من سورة الكهف "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطا"[21]، الذين فهموا معنى الفعل "أغفلنا" من دلالة وزنه الصرفي الشائع لا من استعماله في حياة اللغة. وسيكون معتمَدَه في ذلك مقتضيات النسق التركيبي. فلو كان الفهم كما هو عند الجمهور لوجب أن يكون التعقيب بالفاء لا بالواو، حتى تربط النتيجة بالسبب. أما وأن العطف بالواو فلا مجال لفهم الفعل بمعناه الصرفي. ينضاف إلى هذا الاحتجاج استعمال الصيغة (أفعلَه) بمعنى وجده يفعل لا بمعنى جعله يفعل[22]، وهو استعمال شائع في العربية جاء قدم ابن جني أمثلة عنه.

ومن أمثلة ما يمكن أن تسعف فيه المعرفة اللغوية، تصديقا لمفهوم النسقية ومركزيته، مسألة الحجاب وحدوده التي يقول فيها القرآن: " قل للمومنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكي لهم. إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمومنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن. ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها"(النور، 30–31). فالأصل المؤسس للمسألة أن المشرع الأول هو الله تعالى؛ تصديقا لقوله تعالى: "وما كان لمومن ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم"(الأحزاب،36)، وقوله عز اسمه: "إنما كان قول المومنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وأولائك هم المفلحون" (النور،41). غير أن واقع الحال يشهد بفهم مغاير لما يسمح به نسق اللغة التي خاطب بها الله

المكلفين. فقد رأينا كيف جعل البعض من إسدال "خيمة" تغطي كامل جسد المرأة، من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين، الفهم الصحيح الشرعي لمدلول الآية. والحال أننا إذا تأملنا الآية جيدا، ووظفنا مقتضيات المعرفة اللسانية التي نزل النص القرآني في سياقها بدا لنا غير ما فهمه هؤلاء العامة الذين نافسوا الله في التشريع، وجعلوا بعض أقوال البشر في مستوى كلام الله تعالى، إن لم تكن تجاوزته. فالنص يتحدث عن غض البصر، وهذا يقتضي ناظرا ومنظورا، وهو ما تقر به الآية. فإذا كانت التغطية شاملة فماذا يبقى من الزينة التي كان الأمر بعدم إبداء إلا ما ظهر منها؟ ولماذا، حينئذ، غض البصر؟ لقد انتبه شومسكي، وهو المستفيد من الأخطاء والتجارب، إلى أن نموذج **البنيات التركيبية**[23] اعترته عيوب ونواقص جعلته يولد جملا لاحنة دلاليا، فاقترح النموذج الثاني[24] الذي أدرج فيه المكون الدلالي، لتفادي ثغرات النموذج السابق. وهو النموذج الذي اعتمد فيه مبدأ التفريع المقولي القائم على قيود الانتقاء. ومؤدى هذا المبدأ أن العناصر المعجمية تنتقي، في المعجم، العناصر التي تأتلف معها في التركيب. فالفعل شرب، مثلا، يقتضي مفعولا يمتاز بالسمة [+سائل] حتى تستقيم العبارة وتصح الجملة. وباستحضار هذا المبدأ فإن غض البصر الوارد في آية الحجاب يقتضي ناظرا ومنظورا؛ والنهي ليس مطلقا وإنما جزئي بدليل **من** التبعيضية، عكس الفرج الذي كان النهي فيه مطلقا. هذا ما يقتضيه النسق، وهذا ما يمكن أن تفيد فيه اللغة دارس الفقه. ولو كان غير هذا الفهم، طوال تاريخ الإسلام، ما كان مثل قول الفرزدق:

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما لم تفعل الخمر

وَتَبسِمُ لَمحَ البَرقِ عَن مُتَوَضِّحٍ كَنَورِ الأَقاحِي شافَ أَلوانَها القَطرُ

وكيف تسنى له أن يصف ما رأى، لو كان فهم المتقدمين فهم أصحابنا من المتأخرين (زمانا وفهما). وكيف لم ينكر عليه أحد ما فعل ولم يتهمه بالكذب ما دامت بعض الفهوم توجب "التغطية" الشاملة. بل كيف لم يتصدَّ أحد لابن أبي ربيعة وهو يتغزل بإحدى الحاجّات وقد بدا معصمها أثناء رمي الجمرات:

بدا لي منها مِعصَم حين جَمَّرَتْ وكفٌّ خضيبٌ زُيِّنَتْ ببنان

ومن التعالق بين المعرفة اللغوية وعدم الخطأ في فهم النص القرآني ما جاء في سورة يوسف[25] "واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها، وإنا لصادقون". فقد اعتبر الدارسون أن فيها حذفا وإقامة المضاف إليه مقام المضاف؛ وهو الأمر الذي عدوه من شجاعة العربية، كما فعل ابن جني[26]. وإذا كان الأمر يستقيم في تقدير واسأل أهل القرية ليشهدوا لأبناء يعقوب على صدقهم، وقد كذبوا عليه في بداية القصة، فكيف يستقيم تقدير "وأهل العير" وهم أهلها أنفسهم؟. فهل يعقل أن يشهدوا لأنفسهم على صدق قولهم وهم المدّعون؟ ما في الأمر أنهم يخاطبون نبيا مؤيدا بالوحي وأنهم صادقون، هذه المرةَ، في دعواهم؛ ولا سبيل إلى إقناع أبيهم بصدقهم إلا بخرق المألوف. فلو قدر للعير أن تنطق وأنطقها "الذي أنطق كل شيء"[27] لتكلمت وشهدت بأن أخاهم سرق.

ومن ذلك ما نشهده من سب من قضوا نحبهم وساروا إلى رب غفور رحيم، شديد العقاب، لا يشرك في حكمه أحدا، قال فيهم تعالى: " لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا"[28]. فنسق اللغة يقول بأن الماضي يدل على تحقق الحدث وإنجازه ونفي احتمال تسرب الشك إليه. وهو ما انتبه إليه مترجمو معاني القرآن فترجموا صيغة الماضي، في سياقات معينة، إلى الحاضر présent للدلالة على الاستمرار والديمومة، كما في قوله تعالى: "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب. صنعَ الله الذي أتقن كل شيء"[29] وفي غير ذلك من الآيات. فالفعل **رَضِيَ** يعني أن الرضا حاصل من صاحب الأمر والنهي، وأنه عالم بأحوال قلوب المرضي عنهم. فكيف يأتي، فيما بعد، من يسب من رضي الله عنه ويجعل ذلك تقربا إليه. ففي المسألة خلل لا محالة.

إنها بعض الأمثلة التي توضح بجلاء نسقية اللغة التي تجعل من هذه المنظومة نموذجا لتحليل ودراسة غيرها من المجالات. فالنسق، مثلما هو معلوم لدى أهل النظر، جملة عناصر تتفاعل فيما بينها من جهة، وبينها وبين محيطها من جهة ثانية.

الهوامش

1-سورة البقرة، الآية 30. وقد كانت هذه الآية منطلق اختلاف الكلاميين ومن تبعهم من اللغويين (ابن جني في الخصائص وابن فارس في الصاحبي على سبيل التمثيل) في تحديد أصل اللغة، هل هي توقيفية موحى بها أم اصطلاحية متواضَع عليها. غير أن ما لا خلاف فيه أن الأمر يهم الظاهرة اللغوية التي جعلها سوسير (Cours) الملكة التي يتفرد بها الإنسان عما سواه من الكائنات.

2-لقد أفرد اللساني الفرنسي المهوس بالنسقية غوستاف غليوم Gustave Guillaume بابا للحديث عن نسقية اللغة في كتابه Langage et science du langage، باريس وكيبيك 1984. فليرجع إليه في الصفحات من 220 إلى 240.

3-أوضح مثال في هذا الباب القسطلاني (قوس قزح) الذي يختلف عدد ألوانه من لغة إلى أخرى. ينظر جورج مونان في les Problèmes Théoriques de la Traduction، منشورات غاليمار، باريس 1963.

4-رومان ياكبسون وجوليا كريستيفا وبخاصة رولان بارث.

5-محمد بن الرافه البكري: المغامرة السميائية عند رولان بارث، مجلة علامات، العدد 44/ 2015، ص. 30.

6-المزهر في علوم اللغة وأنواعها، الجزء الأول، ص.38، دار الفكر، (د.ط.) (د.ت.).

7-المقصود بالفعل هنا عمل يقوم به المتكلم وهو فعل التصويت وإحداث الأصوات.

8-الشفاء، كتاب العبارة، مراجعة إبراهيم مدكور ص. 2، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1970.

9-ينظر النص كاملا عند أبي القاسم الزجاجي في الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، الطبعة الرابعة، دار النفائس، بيروت 1982.

10-عنوان المقال "عن العربية باعتبارها نموذجا عاما لنشأة اللغات السامية وتطورها" De la langue arabe comme un modèle général de la formation des langues sémitiques et de leur évolution. Arabica, Tome 28, Fascicule2-3 Sept. 1981, pp. 127-161.

11-المرجع السابق، ص. 153.

12- Etude de la phonologie et de la morphologie de la Koïné arabe. Pub. Université de Provence, Aix-En-Provence, 1983.

13- Grammaire de l'Arabe, P.u.f, 1990. يقول في خاتمته إنه دافع عن فرضية أن اللغة العربية كانت وما تزال منتظمة في [صورة] "نسق الأنساق"، وإنه يمكن تعميم هذه الفرضية على باقي اللغات السامية، ص. 126.

14- La Création Lexicale en Arabe, P.u.Lyon- 2005. وقد صدر الكتاب في بيروت أيضا وفي السنة نفسها، ثم قام محمد إمطوش بترجمته إلى العربية.

15-جاء هذا الباب في الجزء الثالث بعنوان موحٍ ومعبر أيما تعبير "باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية"، ص. 245 وما بعدها. فعلم العربية لا يساعد على فهم الشريعة فقط، وإنما يمنع أي زيغ أو انحراف في الفهم واستخلاص الأحكام.

16-الصفحة 245.

17-المصدر السابق، ص. 247.

18-وفيه أيضا رد على الدكتور طه حسين، رحمه الله، الذي رفض أن يقاس القرآن، الأفضل، على الشعر الجاهلي، المفضول. ورد هذا في كتابه الشعر الجاهلي. والحال أن الأمر لا يتعلق بقياس الأفضل على ما دونه، وإنما بتتبع المعاني والاستعمالات في حياة اللغة. وفيه كذلك رد على بعض المجانين (معرفيا) الذين أنكروا وجود المجاز في القرآن، وقالوا بأن المعاني فيه كلها على الحقيقة؛ لزعمهم أن المجاز يقتضي الاستعارة، والمستعير محتاج. وهذا محال في حقه تعالى. وليس الأمر كما زعموا وظنوا.

19سورة إبراهيم، الآية 5.

20-الكتاب، الجزء الأول، ص. 331.

21-الآية 38.

22–يقول في هذا الشأن: "لو أقام إنسان على خدمة هذا العلم ستين سنةً حتى لا يحظى منه إلا بهذا الموضع لما كان مغبونا فيه، ولا منتقص الحظ منه، ولا السعادة به. وذلك قول الله عز اسمه (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطا) ولن يخلوَ (أغفلنا) هنا من أن يكون من باب أفعلت الشيء أي صادفته ووافقته كذلك". الصفحة 253.

وقد تتبعنا أقوال المفسرين فوجدناهم يفسرون الآية على أن الفعل بمعنى جعله غافلا لا وجده كذلك. وهم، في ذلك، إنما اكتفوا بالقدرة المطلقة للخالق و لم يلتفتوا إلى صفة العدل التي تبعد هذا الفهم. و لم يشر إلى هذا المعنى إلا القلة القليلة منهم.أشار إليه القرطبي والرازي في التفسير الكبير. وقد نص هذا الأخير على أن التفسير الثاني للمعتزلة. وأما غيرهما فقد اكتفى بالمعنى الأول (الطبري وابن كثير والبغوي وأبو حيان...).

23–هو نموذج 1957 الذي تصور فيه إمكان قيام النحو على المكونين التركيبي والصواتي، والذي كان يولد جملا لاحنة دلاليا من مثل الجملة الشهيرة "الأفكار الخضراء التي لا لون لها تنام قلقة"؛ ويتجلى اللحن هنا في المعنى لا في النحو، فقد ربط بين الوجود والعدم، وجعل للمجرد صفة الملموس.

24–إنه نموذج مظاهر النظرية التركيبية، المعروف بنموذج 1965 أو النموذج الثاني، الذي استدرك فيه شومسكي على نموذج البنيات التركيبية 1957 غياب المكون الدلالي المسبب في توليد جمل لاحنة دلاليا. وقد استفاد في ذلك من أعمال الدلاليين التوليديين أمثال كاتز وبوسطال وفودور، وبخاصة ما صدر منها سنة 1964، فكان مما اقترح مبدأ التفريع المقولي sous–catégorisation المبدأ الذي يقيد التوليف بين العناصر المعجمية تلافيا لتوليد جمل لاحنة دلاليا.

25–الآية 82.

26–الخصائص، الجزء الثاني، باب في شجاعة العربية، صص. 360–441.

27سورة فصلت، الآية 20.

28سورة الفتح، الآية 18.

29سورة النمل، الآية 90.